بلاغة الإقناع عند أبي بكر الصديق في ضوء نظرية الحجاج

Title: The Abou Bakr As-Siddiq's persuasion rhetoric in the light of contention theory.

محمد عبد الفتاح

Mohamed Abdelfattah

باحث بسلك الدكتوراه بجامعة محمد الأول بوجدة– المغرب

Doctoral researcher at Mohamed 1st University of Oujda, Morocco

تاريخ الإرسال:2021/03/13 تاريخ القبول: 2021/05/05

ملخص:

الملخص: يتعلق تحليلنا بقراءة خطبة أبي بكر الصديق، بعد حادث السقيفة، في ضوء نظرية الحجاج عند بيرلمان و تيتيكا، وهي خطبة من أجود الخطب الإسلامية عامة، و من أجزل خطبه رضي الله عنه، خاصة لما اشتملت عليه من المعاني الشريفة السامية، في أسلوب جزل رصين، يستحضر أحوال المخاطب، الذي يتوجه إليه الخطاب؛ فجاء أسلوب العرض متماسكا، متلاحم الأفكار، قاطع الدلالة على الغرض، الذي سيقت من أجله الخطبة.

الكلمات المفتاحية: خطبة أبي بكر– حادث السقيفة– نظرية الحجاج

Abstract: Our analysis is about reading Abou Bakr As-Siddiq's sermon after Saqifah's incident, in the light of contention theory according to Chaïm Perelman and Lucie Olbrechts-Tyteca. Il's one of his best and cleverish Islamic speeches in general, may Allah be pleased with him, especially regarding to its noble meanings and its sober and persuasive style, taking in account the situation of his interlocutors; So the presentation's style was very coherent, based on cohesive and conclusive ideas suitable to the specific purpose of the sermon.

الكلمات المفتاحية: key words: -Abou Bakr As-Siddiq's- Saqifah's- Chaïm Perelman.
.

1. **مقدمة:**

تعتبر الخطبة – وبشكل خاص الخطبة الدينية – مجالا يستعرض فيه الخطيب تقنياته البلاغية؛ راميا الحصول على إذعان المستمَع l'ouditoire وتسليمه بما يعرض عليه من أفكار وآراء.

وهذه الخطبة النادرة؛ من خطب أبي بكر – رضي الله عنه – هي أجود الخُطب الإسلامية عامَّة، ومِن أجزل خطبه، خاصة؛ وذلك لما اشتملَت عليه من المعاني الشريفة السامية، في أسلوب جزل رصين؛ فقد راعى، في أسلوب خطبته استحضار المخاطب، الذي يتوجه إليه بالخطاب؛ من خلال انتقاء ألفاظه، وجمله، بما يناسب المعاني المتدفقة على لسانه؛ لأن المعاني الجزلة لا بد لها من ألفاظ، وجمل، وتراكيب، في غاية الفخامة، والمعاني الرقيقة المستملحة لا بد لها من ألفاظ تناسبها رقة وسلاسة؛ ليحصل التشاكل والتناسق بين النوعين، وتكون المعاني مع الألفاظ مفتاحا، يلج من خلاله الخطيب إلى قلب السامع، وجعله يسلم بأطروحاته، ويقبل أفكاره وتوجيهاته. إن هذه الخصائص الفنية مجتمعة قد تحقَّقت في نص هذه الخطبة، وكان الباعث عليها ما استقر في قلب قائلها من الإيمان بالله وحده، والإيمان بمحمد ورسالته، التي هي الإسلام دون ما سواه. ولذلك جاء أسلوب العرض متماسكًا متلاحم الأفكار، لم يضعفه التفكك وتخلخل الفكرة، كما جاء مرتبًا غير مضطرب، واضحًا بعيدًا عن اللبس والاحتمال، قاطع الدلالة على الغرض، صادقًا لا يتسرب إليه الريب.

2. **بلاغة الإقناع في خطب أبي بكر الصديق في ضوء نظرية الحجاج:**

تكاد تكون خطب الخلفاء والحكام والولاة طوال صدر الإسلام والعهد الأموي، وصدر من العهد العباسي من هذا اللون المشبَع بالدليل والاقتباس، وسَوق الحكمة والمثُل، والبعد عن تكاليف الصنعة والزخرف البديعي، ونلحظ عنصر التأثير كامنا في عبارات الخطيب على نحو ما ورَد في جمل خطبة أبي بكر – رضي الله عنه – غير أن هذا التأثير في هذه الخطبة ليس وليد عاطِفة مُثارة، وإنما وليد عبارة مُحكَمة مؤيَّدة بصدق الكلمة ووضوح الدليل.

يعرف شايم بيرلمان Chaïm Perelman ولوسي تيتيكا Lucie Olbrechts-Tyteca الحجاج بأنه: «درس تقنيات الخطاب، التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم؛ بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم والإذعان؛ فأنجح الحجاج، ما وفق في تقوية درجة الإذعان لدى السامعين؛ بشكل يبعثهم على إنجاز العمل المطلوب، أو الإمساك عنه، أووُفّق، على الأقل، في تهييئ السامعين لذلك العمل، في اللحظة المناسبة». (بيرلمان وتيتيكا 1958).[1]

3. مقاطع الخطبة: خطبة أبي بكر بعد حادث السقيفة أنموذجا[2]

تتألَّف هذه الخطبة – من حيث إطارُها العام وهيكلها – من مقدمة وخاتمة، ومن موضوع يربط بين العنصرين.

1.3. المقطع الأول: الاستهلال.. من بداية الخطبة إلى قوله تعالى: وما أرسلناك عليهم حفيظا.

يرتبط الاستهلال بموضوع الحجاج، فالاستهلال، كما يشير إلى ذلك بيرلمان وتيتيكا، يثير الانتباه إلى الفائدة، التي يقدمها هذا الموضوع؛ من خلال أهميته، وخاصيته غير المألوفة، والمخالفة، بسبب إما كونه موضوعا مهملا، أو غير مفهوم، أو محرفا؛ ستعالجه مناسبة الخطاب، من خلال إظهار جوانبه، وفيمَ تفرض الظروف اتخاذ موقف منه.

وفي هذا المقطع، يوظف أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، من الأساليب البديعية ظاهرة الجناس، في قوله «أستهدي الله بالهدى»، وهو جناس اشتقاق بين الاسم والفعل، كما وظف الطباق (الهدى # الضلالة، المهتدي# يضلل، يحي# يميت، يعز # يذل..).

وقد وظف، رضي الله عنه، ظاهرة التناص في قوله:(أرسله إلى الناس كافة)، التي تتناص مع قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.[3] وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾،[4] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.[5] وهي أقوال تتناص بشكل صريح مع منطوق آي القرآن الكريم، التي يعززها، رضي الله عنه، باستشهاده بالآية الكريمة: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.[6]

وغير خاف ما لهذه المحسنات البديعية، من تقوية أسلوب الحجاج، وجعل المستمع يتوجه بكل انتباهه إلى المرسل؛ مصغيا لما يتلفظ به، ما دام الإثنان يشتركان معا في النهل من نفس المرجعية.

فأول ما يبدأ به أبو بكر، خطبته هنا، هو حمد الله، والثناء عليه، والاستعانة به، واستغفاره، والتنصيص على الإيمان به وحده، والتوكل عليه وطلب هدايته، والتعوذ من الضلال، والردى، والشك، والعمى، وهي طريقة يعرض فيها الخطيب للفرضية التي سيبني عليها حجاجه؛ كون هذه العناصر، التي أتى على ذكرها، لا تتطلب تهييئا خاصا للمستمع؛ ما دام يتقاسم المرجعية نفسها مع المرسل، فهي لا تتضمن شيئا غريباً، أو صادماً، ينبغي أن يعلن عنه الخطيب منذ بداية خطابه.

ثم انتقل بعد ذلك، إلى بسط عناصر حجاجه؛ القائمة على الإيمان برسالة محمد عبد الله ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ فأخذ

في ترتيب الحجج في خطابه حسب ترتيب القوة التنازلية L'ordre de force décroissente التي جسدها تناص الحجاج، مع الآية الكريمة، في سورة محمد؛ تمهيدا لإقامة حجية الآية في سورة النساء، التي ساقها في نهاية المقطع: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾،[7] وقد جسدت ترتيب القوة التصاعدية L'ordre de force croissente؛ بوصفها درجة أعلى في الحجاج.

وتضافرت الأساليب البديعية، في هذا المقطع؛ لتؤدي وظيفة استمالة المتلقي، وجعله منخرطاً ومشاركاً في هذه العملية التداولية.

2.3 . المقطع الثاني: من قوله رضي الله عنه أما بعد.. إلى رؤوف بالعباد.

في هذا المقطع، يوظف رضي الله عنه مجموعة من الأساليب النحوية؛ منها أسلوب الأمر في قوله (أوصيكم، ولزوم)، وهو أمر خرج من قوة إنجازية حرفية تفيد طلب الشيء على وجه الاستعلاء إلى قوة إنجازية استلزامية تفيد الطلب؛ لأنه يسدي نصائحه إلى جماعة المؤمنين، وهو واحد من هذه الجماعة؛ يأتمر بأوامر التنزيل، وينتهي بنواهيه؛ فساق ظاهر الأمر؛ على وجه النصح والإرشاد. و يحضر الأمر الحقيقي، في قوله: (فاعلموا، وعدوا، فردوا). كما وظف أسلوب الشرط والمقابلة في نفس الآن: في قوله: (من يكذب يفجر، ومن يفجر يهلك).

ومن الظواهر النحوية الحاضرة في الخطبة، أيضاً، أسلوب التحذير في قوله: (وإياكم والفخر)، والنفي في قوله: «ما فخر من خلق من تراب وإلى التراب يعود». واستعمل أزمنة الأفعال: (يكذب، يفجر، يهلك، يعود....) التي تسمح هي الأخرى بالتأثير في المستمَع، فالمضارع Le present يمنحنا، بسهولة، الإحساس بالحضور؛ كما يوضح ذلك بيرلمان وتيتيكا.

وينتهي هذا المقطع، أيضاً، كما انتهى المقطع السابق، بآية قرآنية مناسبة لسياق الكلام، وهي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِد كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.[8] وهي آية تقابل بين المحسن، الذي يأتي يوم القيامة، وقد تقدمته أعماله الصالحة، والمسيئ الذي تقدمته أعماله السيئة، والحالة التي يكون عليها الإثنان يوم الحساب، أوردها رضي الله عنه؛ ليستدل بها على أقواله السابقة، ويعضد بها فكرته الرامية إلى التشبث بالأعمال الخيّرة، والإقلاع عن الأعمال الطالحة، وهي آية تجسد ترتيب القوة التصاعدية، في الاستدلال، المومإ لها في المقطع الاستهلالي.

3.3. المقطع الثالث: من قوله رضي الله عنه: فاتقوا الله عباد الله.. إلى آخر الخطبة:

وهو بمثابة خاتمة لهذه الخطبة. ولا يجهل ما للخاتمة من أهمية؛ فهي آخر ما ينهي الخطيب خطبته، ويختم كلامه، ويتحقَّق به تمام الموضوع وكماله، ويسمَّى ذلك "حسن الانتهاء"، كما أن براعة الاستهلال تسمَّى حسن المطلع "وكما يجب التألُّق في المطلع، تجب البراعة في المقطع الختامي؛ إذ هو الأثر الباقي في نفوس المستمعين بعد الانتهاء، وآخر ما يتردَّد صداه في قلوبهم، وبه تتمُّ الفائدة.

وفي هذا المقطع، الذي ينهي به أبو بكر، رضي الله عنه، كلام خطبته، وظف سيرا على نهج الأساليب التي ساقها في المقطعين السابقين؛ أسلوب الأمر بنوعيه: في قوله: (فاتقوا الله، راقبوه، اعتبروا، اعلموا...)، وهو أمر حقيقي.

والأمر غير الحقيقي في قوله: (اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد أفضل ما صلَّيتَ على أحد مِن خلقك، وزَكِّنا بالصلاة عليه، وألحقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، اللهم أعنَّا على طاعتك، وانصرنا على عدوك). وهو أمر خرج من قوة إنجازية تفيد طلب الحصول على شيء على وجه الاستعلاء إلى قوة إنجازية استلزامية تفيد الدعاء والطلب.

وقد وظف أسلوب التوكيد:(أنفسكم أنفسكم) وهو توكيد لفظي، يعتمد على التكرار بنية الترغيب والإغراء، وهي التقنية الأكثر بساطة؛ لخلق فكرة الحضور la presence، حسب التحليل الذي يورده بيرلمان وتيكتيكا في مصنفهما في الحجاج. كما وظف أسلوب البديع؛ من خلال توظيفه لأسلوب الطباق:(صغيرها #كبيرها)، وهو طباق يجنح إلى تأدية نفس الدور، الذي لعبته الثنائيات الضدية السابقة، في المقطع الأول؛ في استدعاء ذهن المستمَع، وجعله مواكبا لعناصر الخطاب.

4. أهمية عنصر الختم في الخطبة:

للخاتمة الأثر في بقاء قوة الخطبة في أذهان المستمعين؛ لأنها آخر جزء منها، وهي آخر ما ينساه المستمع من حديث الخطيب؛ والسبب في ذلك أن المستمع يركِّز على مقدمة الخطبة وخاتمتها، أما في وسطها وما يتعلَّق بموضوع الخطبة، فربما أصيب المستمع بقلة التركيز، وشرود الذهن، فوجب على الخطيب الاهتمام بالخاتمة، وأن تكون في غاية الوضوح، والتأثير، والجمال والروعة، وهو ما جنح له أبو بكر، وأولاه كبير عناية وحسن اهتمام.

5.الخاتمة:

لا أحد يجهل مكانة أبي بكر الصديق في الجاهلية؛ من حيث تحليه – رضي الله عنه – بالقيم الإنسانية الرفيعة، التي جمَّلتها سلامة منطقه وسموُّ بلاغته، فكان لزاما أن تأخذ هذه البلاغة مكانتها في كلامه تأثُّرا بهدي الإسلام من خلال الهدي القرآني والكلام النبوي الشريف؛ ولذلك لا نجد في ألفاظ خطبته هذه ما يكدِّر صفو المعنى مِن لفظ وحشي غريب أو متنافر، أو بُعْدٍ

عن حد الفصاحة. وإنما هي ألفاظ سهلة سلسة مُنتقاة، ولا نجد في المعاني التي عبر عنها معنى مُستغلقا عن اللأفهام أو ساقطا مَرذولاً تمجُّه الأذواق السليمة، أو عاميًّا سوقيا مُسفًّا، أو غامضا مُستكرَهاً. كما لا نجد أثرًا للتكلف ؛ فقد عريت أجزاء هذه الخطبة مِن زخرف القول، حتى بانَ في معانيها تلاحق الفقرات من غير عناء؛ لأنها من قبيل الوعظ والإرشاد في طابع إسلامي رصينِ النسج، محكَم العبارة، يتخلله درر من آيات الله البينات؛ لإقامة الحُجَّة والبرهان على المعاني التي سيقت في ثنايا النص.

6.المصادر والمراجع:

1- القرآن الكريم.

2- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد- تحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى 1404هـ/ الموافق 1983م.

3- Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts-Tyteca: Traité de l'Argumentation: La nouvelle rhétorique-édition de l'université Libre de Bruxelles- 5éme édition 1988. 1er édition 1958.

7. ملحق:

خطبة أبي بكر بعد حادث السقيفة. يقول أبو بكر – رضي الله عنه – في هذه الخطبة:

الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأومن به، وأتوكل عليه، وأستهدي الله بالهدى، وأعوذ به من الضلالة والردى، ومِن الشك والعمى، ومن يهد الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليّا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، يعزُّ مَن يشاء ويُذلُّ مَن يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، أرسله إلى الناس كافة، رحمة لهم، وحجَّة عليهم، والناس حينئذ على شرٍّ حال في ظلمات الجاهلية، دينهم بدعة، ودعوتهم فرية، فأعز الله الدِّين بمحمد صلى الله عليه وسلم – وألف بين قلوبكم – أيها المؤمنون – فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون، فأطيعوا الله ورسوله، فإنه قال – عز وجل:

﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.[9]

أما بعد، أيها الناس:

إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم، فإنه ليس

فيها دون الصدق مِن الحديث خير، مَن يكذب يَفجر، ومَن يفجر يهلك، وإياكم والفخَر، وما فخرُ مَن خلق مِن تراب وإلى التراب يعود، هو اليوم حي وغدًا ميت، فاعلموا وعدوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردُّوا علمه إلى الله، وقدموا لأنفسكم خيرا تجدوه مُحضرا؛ فإنه قال – عز وجل:﴿ يَوْمَ تَجِد كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾.[10]

فاتقوا الله عباد الله – وراقبوه، واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا أنه لا بد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم، صغيرها وكبيرها، إلا ما غفر الله، إنه غفور رحيم، فأنفسَكم أنفسَكم والمستعان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.[11] اللهم صلِّ على عبدك ورسولك محمد أفضل ما صلَّيتَ على أحد مِن خلقك، وزَكِّنا بالصلاة عليه، وألحقنا به، واحشرنا في زمرته، وأوردنا حوضه، اللهم أعنَّا على طاعتك، وانصرنا على عدوك.

[1]- Chaïm Perelman et Lucie Olbrechts- Traité de l'Argumentation: La nouvelle rhétorique -édition de l’université Libre de Bruxelles- 5éme édition 1988. 1er édition 1958- p: 6.

[2]- أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد- تحقيق الدكتور عبد المجيد الترحيني، الجزء الرابع، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى 1404هـ الموافق 1983م، ص/ص: 149-152.

[3]- سورة سبأ، الآية 28.

[4]- سورة النساء، الآية 59.

[5]- سورة التوبة، الآية 33.

[6]- سورة النساء، الآية 80.

[7]- سورة النساء، الآية 80.

[8]- سورة آل عمران، الآية: 30.

[9]- سورة النساء، الآية: 80.

[10]- سورة آل عمران، الآية: 30.

[11]- سورة الأحزاب، الآية: 56.